عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (4605) السنة السابعة عشرة
الخميس (6) شباط 2020
WWW. almadasupplements.com

5-4
جليل حيدر.. ترنيمة بغدادية

جليل حيدر

العدد (4605)
السنة السابعة عشرة - الخميس
(6) شباط 2020

حوار في السماء مع الشاعر العراقي جليل حيدر

هادي الحسيني

في زيارته الى وطنه العراق وبعد فراق طويل دام اكثر من ثلاثة عقود التقيت الشاعر العراقي الكبير جليل حيدر في اتحاد الادباء وهو يلتقي باصدقائه القدماء والجدد الذين تعرف اليهم خلال فترة بقائه في بغداد ، كان رائعاً بكل شيء ، طيبته ، ثقافته العالية ، دماثة اخلاقه ، تواضعه ، بساطته ،وكذلك كرمه ، وقد احسست للوهلة الاولى وانا اتعرف الى هذا الشاعر الذي له بصماته الواضحة في القصيدة الحديثة منذ عقود اربعة انه شاعر من طراز خاص ، وأحد اعمدة جيل الستينات الشعري العراقي الصلبة الذي ما ان يمّر ذكر شعراء هذا الجيل إلا ويقفز اسمه الى المقدمة ، شاعر انجز اكثر من عشرة مجموعات شعرية كانت عبارة عن جواز مرور له في كل الدول العربية بالرغم من خروجه المبكر من العراق اواخر العقد السبعيني . جليل حيدر حتى في سلوكه شاعر فهو يتعامل مع الجميع بروحية عالية .

ولعل الصدفة وحدها التي قادتني لمعرفة موعد طائرته التي هي نفس موعد طائرتي وفي نفس الرحلة المتجهة من العاصمة بغداد الى فينا عاصمة النمسا ، اتفقنا في اتحاد الادباء حيث نودع اصدقائنا ، وفي اليوم التالي جاء موعد الطائرة ثم انطلقنا من امام بيتنا القريب من شارع المطار بعد ان جاء جليل حيدر ظهر يوم الثاني والعشرين من شباط عام ٢٠١٢ ، ثم وصلنا الى ساحة عباس بن فرناس التي تبعد بضعة كيلو مترات من مطار بغداد ومن تلك الساحة يودع الاهل والاصدقاء مسافريهم بسبب الاجراءات الامنية المشددة على المطار ، استأجرنا سيارة تكسي خاصة بالمطار ثم توقفنا عند اول نقطة تفتيش ، ترجلنا وجاء احد العمال لينقل حقائبنا في عربة صغيرة لكي يدخلها التفتيش ، انتهى تفتيش الحقائب ثم وصلنا الى نقطة تفتيش ثانية وقد اطلق عليها الشاعر جليل حيدر بالمرحلة الكلبية ! حيث ان الكلاب البوليسية ستقوم بشم الحقائب وما ان انتهينا من المرحلة الكلبية حتى باب المطار كانت ثمة نقطة تفتيش اخيرة كما قال سائق التكسي الذي اخذ اجرته وغادرنا ، اوقفونا ما بين الحد الفاصل بيننا وبين الحقائب لدقائق استغرقت اشعال سكائرنا حتى وصلت منافضها ، ثم دخلنا المطار وبعد عملية شحن الحقائب دخلنا الاستراحة ومازال ممر الدخول الى الطائرة مغلقاً، جلسنا في كافتريا المطار لنشرب العصير وندخن سكائرنا حتى دخل علينا الفنان مناضل داوود الذي كان معنا على نفس الرحلة ، وفي الطائرة وهي تحلق في الجو وما ان استقر الحال حتى اخرجت اوراقي وقلمي من حقيبتي الصغيرة ، قال لي الشاعر جليل حيدر ماذا ستصنع قلت له منذ زمان وانا اقرأ لك ومعجب بقصائدك وكم تمنيت لقائك لكن حظي جعلني ان التقيك في السماء لأجري معك حواراً . قال ليس بحوار لكنه دردشة في السماء ، قلت فاليكن كذلك ، وقد وعدني بحوار طويل عن تجربته الشعرية لاحقاً ، انه حوار في السماء فوق الغيوم .

***كيف رأيت بغداد بعد غربة طويلة دامت اكثر من ٣٢ عاماً ؟**

- بغداد عمياء ، محاطة بالاسمنت ، مغلقة الشوارع ومتصحرة ، ولولا جمهرة الشعراء والاصدقاء والاحبة لاصبت بالكآبة ،بغداد يحتاج لها الكثير من الوقت لبنائها ومن ثم يحتاج الوقت الاكثر لترميم الانسان الذي انهكته الحروب ومآسيها والحصار ودماره .

***هل ان خارطة الشعر العراقي الجديدة تراها تبشر بخير وهل ثمة شعراء جدد لفتوا انتباهك ؟**

- تعرفت على شعراء لهم بصماتهم الواضحة ، كما قرأت مجموعات شعرية عديدة ، لكن هذا الكم من الشعر لا يوازي القيمة المؤثرة للنص ، ومع هذا لديّ امل كبير في الشعر العراقي رغم بعض الادعاءات النقدية من الخليج العربي ومن بيروت التي تدعي ان الهامش هو الافضل من المركز ، اعني بغداد .

***كيف تحدثني عن ذكرياتك في اتحاد الادباء وجلساتك مع اصدقاء قدماء وجدد؟**

- انا سعيد جداً في تعرفي الى شعراء جدد ملؤني بالحفاوة والحب وبدا لي انهم كانوا يقرأوا شعري جيداً مثل زعيم النصار الذي اعجبتني قصيدته (نعاس الكتابة) كذلك محمد النصار وكاظم الواسطي وحسام السراي وصلاح حسن وحسين علي يونس وهادي الحسيني واحمد عبد السادة ، كما والتقيت العديد من اصدقائي القدماء وكانت ايام جميلة برفقة اصدقاء كثيرين .

***هل اقيمت لك امسية احتفالية في بغداد ؟**

في بيت الشعر اقاموا ليّ امسية عند شارع المتنبي في نهار جمعة وقد قرأ فاضل ثامر ورقة نقدية تناول فيها ثيمة القرين كذلك الاعلامي احمد المهنا جاء بقراءة في تاريخي ومواقفي عبر صداقة امتدت لزمن طويل اكثر من ٤٠ عاما ، وقدم الامسية الناقد السينمائي علاء المفرجي مسؤول القسم الثقافي في جريدة المدى .

***وماذا قرأت في تلك الامسية من قصائد قديمة ام جديدة ؟**

قرأت قصائد من مخطوطة شعرية بعنوان (فضاء بغداد الابيض) قرأت نخبة من قصائدها ونشرت في الصحف المحلية اغلب القصائد التي قرأتها

***ما الذي اعجبك في بغداد ؟**

اعجبني شارع المتنبي يوم الجمعة فقط وذلك لاني لم أر شيئاً باستثناء فرحي وانا ارى نصب الحرية في ساحة التحرير للراحل جواد سليم ، كذلك نهر دجلة وهو اجمل ما شاهدت وقد ذهبت برحلة نهرية مع بعض الاصدقاء وكانت رائعة حقاً .

***وماذا عن مشاريعك الشعرية الجديدة؟**

لديّ ديوانان الاول بعنوان (اسد بابل) وقد قدم له اودنيس وفاضل العزاوي ، وديواني الثاني من قصائد النثر هو (فضاء بغداد الابيض) وقد اعطيته لاحد الاصدقاء لطباعته في بغداد ؟

***كيف تحدثني عن الاسبقيات في قصيدة النثر وبخاصة العربية التي انتابتها العديد من الخلافات حول الريادة في كتابتها ، خاصة وان الاشقاء في لبنان وسوريا ينسبون الريادة لهم ؟**

الحديث عن الاسبقيات يحتاج الى تمعن جيد في الشعر واولوياته ، لكني اعتقد ان حسين مردان وانسي الحاج لهم الاسبقية ، وأن قصيدة النثر تشكلت في لبنان على يد انسي الحاج ، بينما حسين مردان كتب النثر المركز . وحين قرأ بودلير آدغار الن بو قال انه شقيقي الروحي ، فيما يرى سركون بولص ان قصيدة النثر هي ركسونية ، وعبد القادر الجنابي يراها فرنسية ، وكذلك النقد الاوربي ، واذا نظرنا الى يوميات بودلير فهي قصائد نثر خالصة تماماً .

***هل كتبت الرواية ؟**

لا ادعي كتابة الرواية .

***وهل ثمة محاولات في كتابتها ؟**

اتمنى ذلك .

***سأذكر لك بعض الاسماء الشعرية التي تعرفها عن قرب واتمنى ان اسمع رأيك فيها ؟**

***البياتي ؟**

متصوف في بدلة مودرين .

***سعدي يوسف ؟**

مازال اخضرا .

***فاضل العزاوي ؟**

شاعر خطر ، وصديق نزيه .

***اودنيس ؟**

هذا هو اسمه .

***سركون بولص ؟**

مازال شعره يصل الى مدينة أين .

***جان دمو ؟**

اسماله قليلة وصيته كبير .

***نصيف الناصري ؟**

صديق طيب ووفيٍ وشاعر جيد اشتاق له حتى نحن في مالمو ويطمئن ليّ جداً كما اطمئن له ، وله مستقبل في قصيدة النثر .

***ما هو شعورك الآن ونحن نحلق بالقرب من السماوات السبع في طائرة الخطوط الجوية النمساوية ، خاصة وقد ودعنا قبل قليل ارض مطار بغداد الحبيب ؟**

لكي اصل مدينتي مالمو في السويد التي اعشقها كما بغداد فأنا قلق ، لكني في نفس الوقت سعيد لاني سأصل مدينتي وهو شعور يشبه العودة الى الوطن ؟

***هل كانت الرحلة جميلة ؟**

كانت ممتعة بوجودنا معاً ولقاء بعض الاصدقاء داخل صالة المطار ؟

جليل حيدر في سطور :

ولد في بغداد عام ١٩٤٥

اصداراته:

قصائد الضدّ بغداد ١٩٧٤

صفير خاصّ بغداد ١٩٧٧

شخص بين الشرفة والطريق بيروت ١٩٨٠

حبر لليل.. رجل للمكان بيروت ١٩٨٢

الضدّ والمكان عدن ١٩٨٤

السمندل قبرص ١٩٨٣

شعر ومقاومة قصائد بالعربيّة والفرنسيّة ١٩٨٣

رماد الكاكي دمشق ١٩٨٣

طائرٍ الشاكو ماكو كولن ١٩٩٢

دائماً.. لكن هناك بيروت ١٩٩٩

في حين له في المسرح: جريمة بيضاء في غرفة- مسرحيّة من فصل واحد، وفي الترجمات عن السويديّة: "بورتريه للملائكة" بيروت ١٩٩٩.

ويصدر له قريبا : اسد بابل ، وفضاء بغداد الابيض.

العدد (4605)
السنة السابعة عشرة - الخميس
(6) شباط 2020

جليل حيدر تحية

يمكن النظر إلى تجربة الشاعر جليل حيدر من زوايا عديدة، أولاً لأنها تجربة متنوعة وثرية عبر محطات ومنعطفات حياتية منذ الستينيات من القرن الماضي وصولاً إلى البرهة الراهنة، غير أنني سأشير إلى مفصلين أظنهما يندرجان في عمق التجربة الشعرية عند الصديق جليل حيدر، أولهما القدرة التجريبية العالية في القصيدة، للإمساك باللحظة الجمالية وتصعيدها شعرياً مع ما يتبعها من حالة التأمل في حركة العالم والأشياء التي تدور حوله، مستفيداً خصوصاً في أعماله الشعرية المتأخرة.

زاهر الغافري

.أقول مستفيداً من العناصر الإبداعية السردية في الثقافة سواء كانت هذه العناصر منتظمة في سياقها العربي أو العالمي، وأظن أنها ميزة تُحسب لجليل حيدر، كما أنها في الوقت ذاته ميزة تدخل في صلب التجربة الشعرية الحديثة، هذا بالإضافة إلى أن التجربة السويدية حياة وكتابة أضافت إلى الشاعر نوعاً من الشفافية والرقة الجمالية في التأمل والاقتراب من الطبيعة وحركة الاشياء لكن دون أن تتخلى القصيدة عن قدرتها على المواجهة النقدية بالمعنى العميق للكلمة، أي أن قصيدة جليل حيدر لا تذهب إلى سطح الأشياء، بل إلى عمقها، هذا من ناحية النص الشعري، أما من الناحية الأخرى أو المفصل الآخر فأظنه يندرج في مواقف جليل حيدر الإنسان، وشخصياً عبر علاقتي الصداقية معه منذ سنوات طويلة، عرفتُ في شخص جليل دفاعه النبيل عن أصدقائه من الكتّاب والفنانين والشعراء في وجه أي تعسف يتعرضون له، هذه ميزة المثقف الطليعي أو المثقف النقدي، الحرية لا تمس، هذا هو موقف جليل، الحرية في وجه الطغيان مهما كان ومن أي جهة أتى، والحرية التي أعنيها هنا، هي حرية الموقف كقيمة إنسانية، الموقف الجمالي الصادق والمسؤول.

يقدم جليل حيدر في قصائده ما يُشبه النشيد الجنائزي إلى بلده العراق انه نشيد احتجاجي ولامع، عبر صور شعرية، تتصاعد مثل الموسيقى وعبر مفردات ولغة تنهض صافية، ملتبسة بغموض شفاف وآسر، عمارة من الخيال الجامح، العنيد وجمالية تستنطق الأمكنة الهاربة والحياة المعجونة بالألم والخيبة، مع مسحة من المفارقات والسخرية السوداء، انها إضاءات تكشف عن مفاسد الواقع وإحباطات أجيال من المثقفين ونهاية الأحلام المغدورة، المدفونة في الروح. قصائد جليل حيدر تكشف عن طزاجة وتألق في المخيلة والمزاج، ومنذ بواكير أعماله الأولى يلمع المزاج المشاكس في قصائده، "قصائد الضد ١٩٧٤"، "صفير خاص ١٩٧٧"، "شخص بين الشرفة والطريق"، "حبر لليل، رحيل للمكان"، "السمندل"، "الضد والمكان"، "طائر الشاكو ماكو" حتى آخر أعماله الشعرية المطبوعة، "دائماً لكن هناك" إضافة إلى الترجمات التي قام بها بنقل شعراء سويديين أحبهم إلى العربية، يصف جليل حيدر الشاعر بـ"هذا الكائن المنهك بأحلامه، يُشير الى سبورة الأخطاء، مكتشفاً سهواً آخر، يتعثر به، انه أسلوب في الحياة يفتتن بأسرار الزهرة وبغموض الفجر وبابتسامة تبرق خلف نافذة قطار". يتحدث الشاعر العراقي فاضل العزاوي عن قصيدة جليل بأن الشاعر يكتب عن العراق "في محاولة للوصول إلى ما هو أبعد من لوعة المشهد، انه يعيد رواية التاريخ لينقيه ويستحضر سحرته لينصب لهم مائدة في حديقة الليل حيث زمرة أشباح تلعب الورق في خرائب الماضي، يفتت الماضي شظية، شظية ليصنع من جلد التمساح بلداً، حيث تحتمي الأحاجي بالرواة والرموز تضيع عليه. ومع ذلك يمكن للذكريات نفسها، وهي كل حياته في بغداد، أن تطلق الأشباح نفسها من بئرها العميقة".

تحية دافئة إلى صديقي الغالي جليل حيدر

أنيس الرافعي

منذ " طائر الشاكو ماكو "، منذ " شخص بين الشرفة والطريق " ، منذ " صفير خاص " ، منذ الغبطة القصوى و الأولى لاكتشاف تلك القصيدة المختلفة المختلقة المختنقة القادرة على إضعاف مناعة المطلق الشعري و جليل حيدر مستقر في خلايا وجداني مثل علة عضال و منغرس في أرض ذائقتي كبيرق حرب خفاق. والآن ، أعود إليه القهقرى مترعا بالشجن و الدهشة و الشوق في ديوانه الجديد " كأن " (دار سطور ، بغداد ، ٢٠١٨) . أعود إلى ذياك " الكائن الأحمر " الطاعن في نأي المنفى و المواقف المبدئية المطهرين من وعثاء الايديلوجيا ، الذي يقدم على الدوام - عمدا - قراءة خاطئة للنسيان . نعم ، قراءة مضللة و مموهة للذكرى . إذ من تحاصره الأوجاع و الملمات و الخيبات من شتى الأنحاء مثل " قطيع من التماسيح في مستنقع " ، يكون مجبرا على تهجير حياته الهاربة و سيرته الممزقة صوب هشاشة البدد لا صلابة الديمومة. صوب خفوت القناطر الصغيرة لا ضياء الجسور . صوب وهن الذبول لا غطرسة التفتح . صوب براءة الشكوك لا قسوة البراهين . إنها الهزيمة النكراء " لليقين في حياء الجملة " . خروج الذات القصية من بداهة الإيقاع إلى غموض الخاطر المكسور. عودة النفس في نهاية المطاف إلى لغتها العتيقة البدائية : الصمت . الصمت البليغ النازف المجروح بكبرياء في معارك قذرة من ابتكار الوقت وتدابيره الجائرة. تلك اللغة التي سمع بول تسيلان أصداء خريرها القديم و سماها ب " البئر الخرساء التي تسقي الصمت . تسقي ما بعد الماء و تغدو أخدودا للعطش" . صمت العين و الروح وهما تقعان في شرك محكم نصبته لهما أداة تشبيه جارحة كالوجود . ولوجهما الحثيث إلى المناطق الناتئة و المسننة للكينونة، إلى دهاليز الأمداء الساكنة التي يمكن العثور عليها بعد " القفز فوق عدمية اللغة " كما نعتها الناقد الفرنسي ميشيل آر. جليل حيدر في هذا الديوان العميق معتق النصوص متقن الصنائع يقتلع كل البذور السامة من شتائل الكلام و يمنح لطائر الشعر المتوحد فرصة أخيرة للتواري عن الأنظار . يطلب منه فحسب أن يترك قبض ظل و ريشة دالة عليه في المخيلة. و له الآن- بعد كل هذا المحو وبعد كل هذه المكابدة وبعد كل هذا الاستغناء - أن لا يعود إلى صاحبه .أن يظل بحوزتنا وفي عهدة اعجابنا إلى الأبد . شكرا لك يا جليل حيدر ، هيا أسد بابل الأشم على كل هذا الجمال الذي قضم أرواحنا و أرداها صريعة الحواف والتخوم ، حيث ثمة دائما مناطق عازلة ضد الفداحة، وثمة امكانية متاحة لانتظار " قطار آيب من الأمل " .

حين الحديث عن الثقافة العراقية عموما والحركة الشعرية بشكل خاص فلا بد من الوقوف على فترة الستينات من القرن المنصرم، إذ شكلت منعطفا هاما واستثنائيا، لا يمكن المرور عليه مرورا سريعا في اي حال من الاحوال. فقد تأثرت الثقافة العراقية وقتذاك كغيرها من الثقافات القابلة للتفاعل وبشكل كبير بجملة من العوامل الخارجية، حيث لم تكن في منأى عن تلك الأسئلة الصاخبة والصريحة، وإن شئت أن تُضيف لها عاملاً آخر، يتمثل ببروز تلك الحالة الثورية، إرتباطا بظهور العديد من الحركات اليسارية التي عمّت أغلب بقاع الأرض.

حاتم جعفر

جليل حيدر.. ترنيمة بغدادية

حيث لقت تلك العوامل مجتمعةصدى واسعا وشغلت بال المثقف النوعي وأحدثت بدورها إنقلاباً جذرياً في جملة من الحقائق والثوابت، كمفهوم الحداثة والبنيوية وما رافقهما من بروز وولادة مدارس فكرية وثقافية وفلسفية بل وحتى سياسية، إضافة الى مارافق ذلك من عوامل داخلية وخارجية، ألقت بكاهلها على أكتاف المثقف العراقي الملتزم هموماً إضافية، كان لا بد له من التصدي لها والتفاعل معها من أجل المساهمة، بل الوقوف على تلك العقد والمتاعب الذي تواجه مجتمعاتنا وكل حسب ادواته، خاصة وهو يعج بالكثير من الأسئلة التي لم تجد لها حلا مقنعا، مرضيا. ولان المثقف العراقي كان وبقدر ما على مقربة من تلك الهموم، لذا كان من الطبيعي أن تجد تلك الاسئلةا صدى واسعا في داخله، وبشكل خاص من قبل شريحة الشعراء، وقد يكون مرد ذلك حساسيتهم المفرطة واستجابتهم السريعة لتلك الأوجاع.

تحت هذا الظرف برزت مجموعة من الشعراء كان احدهم جليل حيدر (فارضا نفسه منذ البداية كشاعر في قلب حركة التجديد الشعرية العراقية التي شهدتها مرحلة الستينات، ضمن صوته الخاص الآتي من ضفة أخرى غارقة في الضباب..) كما قال عنه الاديب العراقي المعروف فاضل العزاوي.

وفي ذات الاتجاه ولطالما نتحدث عن شاعرية جليل حيدر، فللشاعر والكاهن يوسف سعيد رؤيا ربما تلامس الدقة في الوصف، فهو يرى في صديقه (شاعر رقيق وأنيق في كتابته، يستوعب بسرعة، اذا لم تضطهده لا تأتي سماء الكتابة صافية عنده. أنا معجب به وبجرأته، ولا زال يكتب جيدا كما بدأ). هنا يشعر المتلقي بأن ليس هناك من مساحة للمجاملة فالوصف هنا اتسم بالوضوح وبالمباشرة، مبتعدا في ذات الوقت عن المبالغة في منتج صاحبه، خاصة وإنَّ حامل الرأي بجليل كان بريئا ونقيا ومحايداً في تقييمه. واعتقد ان تناول تجربة جليل حيدر لا تخلو من مخاطرة، فله مساحة ملفتة في تجربة الستينات وسط زحام من الاسماءالثقيلة، تبارت ولا تزال على الريادة وعلى شغل المقاعد الاولى في ناصية الشعر، ليس على المستوى العراقي فحسب وانما على مساحة الثقافة العربية بعمومها.

ولأن الثقافة العراقية، اجتازت حدودها الجغرافية بأمتياز لتترك ظلالها ومؤثراتها على الثقافة العربية وخاصة على مستوى الابداع الشعري، بإعتبار شعرائها سادة ديوانه ووارثين ومنتجين لأجمل النصوص الشعرية، فلابد هنا من الاستعانة باحدى الشهادات التي لاترتقي الى الاشادة بشاعرية جليل حيدر فحسب، وانما الى درجة التحسس بالانتماء الوطني والتقدمي للمثقف العراقي، وذلك في اشارة واضحة من الكاتب المصري حلمي سالم في كتابه الموسوم (الثقافة تحت الحصار) الذي تناول فيه تجربة حصار المقاومة الوطنية الفلسطينية لبيروت في مطلع ثمانينات القرن المنصرم.

ففي تعبير واعتراف صريحين كتب حلمي سالم (أما سعدي يوسف وجليل حيدر، فهما سيرة أخرى من سير الجمال الرائق). وعلى الرغم من الفارق الزمني بين تجربة الشاعرين فقد وضعهما الكاتب في مستوى ومنزلة واحدة من حيث المكانة والحضور الشعريين، بل اختار لجليل حيدر أن يكون في مقدمة الشعراء العراقيين الشباب الذين جايلوه. وعلى حد قول الكاتب، لم يتوقع الكثيرون ان هذا الشاعر الذي يكتب شعرا (غامضا) غارقا فيما سمي بالـ (ثورية على الطراز الوجودي)، يمكن أن تأتي عليه لحظة يجند فيها قلمه وشخصه لمعركة الصمود (الثقافي والقتالي) معا.

وعن مصادر ثقافته يقول الشاعر: قرأنا الكثير عن المقاومة الفرنسية وحرب الانصار، وكانت مادة للعديد من استشهاداتنا وحججنا الثقافية في الصراعات الايدولوجية. حفظنا أشعارا لأيلوار الحرية ولأراغون، ناهيك عن الأطنان من الكلام المدافع الشريف الجميل، وكانت تجربة كوبا وفيتنام والسلفادور خير شاهد على ذلك. يضيف جليل: قرأنا مالرو وهيمنجواي وكطذلك عن الحرب الاهلية الاسبانية وتغنينا بالشهيد العظيم لوركا، حفظنا ورددنا بتضامن وجمال أناشيد نيرودا وأغاني فيكتور جارا. وعن كل ذلك، يلخص جليل حيدر بوضوح تجربته الشعرية عبر انتماء انساني، تكون معه التجربة ناقصة ومتهمة ان لم تتبن قضية الشعوب العادلة وتطلعاتها المشروعة في الحرية وأقامة الانظمة السياسية العادلة.

لجليل حيدر مدينة واحدة، أحبها وأحبته وفتحت له كل ابوابها، لا يرضى أن ينافسه أحد على حبها، لمَ لا وهي حاضرة الدنيا وعاصمة العالم، قبل أن تعَبث بها عصور من الضلالة والجهل، هي كلها له وملك يديه، من باب الشيخ حتى باب القبلة في الكاظمية، ومن باب الشرقي الى باب المعظم وصاحبها النعمان. كان طليقا، حرا إذن في تجواله وحله وترحاله، يقطع شارعي الرشيد والسعدون ودرابين حي الاكراد وابو سيفين وأزقة الفضل العتيقة والعريقة، لا يتذكر يوما ان الطرق موصودة وان اهل بغداد قد قُطعت أوصالهم بين انتماءات من التخلف والجهل والظلالة، أو ان الحرس الملكي أو الجمهوري أغلق جسر الصرافية أو جسر مود، وحين يشعر بالتعب وبرصد الرجل السري له، فملجأه نخبة من البشر الذين اصطفاهم الإنتماء ومقهى ابراهيم، حيث يرتشف الشاي وبضع كلمات من الجدل وأحاديث الشجاعة والقوة الدافعة، ليدون في دفتر يومياته :

أبدُ خوفا في مقهى ابراهيم يراني حرس الفكر
أجوس الاحلام المشروطة
أتحدث عن (لا)
عن حب يدفنني
عن شرطي يضرب رأسي بالجدران.

في هذه القصيدة من ديوان (قصائد الضد) يجد جليل حيدر مكانا آمنا لتفويت الفرصة على رجل الامن ومراقبي الضمير ومستلبيه، وعلى مصادري حرية التعبير والاختيار، فمأواه نخبة مصطفاة من ابناء جلدته ممن يحملون ذات الافكار أو نحو ذلك، ليمارس لغة التصدي وفق قناعاته التي آمن بها وسار على نسقها ورسغها، مدافعا عن وجوده :

حياتي وطن يهرع من خوف الممكن، من
جوقة اعدام، من زهر الدفلى، من سخرية
سوداء، حياتي وطن يمشي بين الشارع
والمقهى، بين البيت وحانة (غاردينيا).

كرخ بغداد كما رصافتها ظلت عزيزة على قلبه، مدللة، لاتدانيها في الحب عاصمة أخرى رغم تغربه المبكر واضطراره مغادرة وطنه، المصادر والمحاصر والمكبل بالديكتاتورية وحكم الاطراف والغرباء والسطو الهمجي على صناعة قرارات الحياة ومسار أهل الرافدين. ربما أزداد وجعه واحساسه بالغربة أكثر مما مضى بعد أن داست اقدام اليانكي أرض بغداد وتكالب الغزاة والهمج المحليون والطارئون والمتطفلون على الحياة المدنية، فزاد المه وزادت أوجاعه. وحين صعب اللقاء ببغداده فقد استضافها وفتح لها ابواب الراحة لتهدأ قليلا ولتهدأ روحه أيضا، ولتنفض عنها الغبار والتراب العالق بسبب من سياسات العمائم البيض والسود ونفاق الانتماء الديني وطبقة السياسيين الجدد، من الاميين وسقط متاع الأرض، ولَكَم كان سخيا فيما كتب:

في مقهى Bros كانت بغداد تنتظرني
طلبت لها وجبة غداء، مع رسالة وعلبة زينة
وَضعت النادلة زجاجة Tuborg على الطاولة وهي
تبتسم.

بعد هذه الصورة الخاطفة، تجد جليل حيدر وقد استمر في حلمه أو في يقظته وربما بين الاثنين أو الأثنين معا، فيفتح بابيه على مصراعين من الوداعة، وكانت لمنطقة الشواكة مكان القلب وهي القادمة من بغداد وأي بغداد:

زارته الشواكة وارتبكت
حين تحدث عن عينيها الداكنتين
(أقول وداعا لمسناة غرقى في القصة)
زارته الشواكة
حين دنا من تمثال ثلجي في Malmö
وأحاطت خصره بأمان من قش
(فأقول وداعا للحي الباقي حين يجوس
دهاليز الظلمة)
هل أتت الشواكة ماشية في Triangel
أم يمشي هو في الخفية مرتحلا في قاطرتين؟
Malmö بغداد
بغداد Malmö
سعر التذكرة : مستوى الحلم.

ونحن نقول لا تحزن ستدخل بغدادٍ عاشقا.

هو يفخر بإنتمائيين، فلبغداده أولاً ولسطوة الشعر ثانيا، أو ربما سيكونان الإثنين على مستوى واحد من العشق. وإذا ما عدنا في الحديث عن شعر جليل حيدر فهو ينتمي الى ما أطلق عليه من قبل النقاد ومتابعي الحركة الشعرية في العراق بجيل الستينات، فعلى الرغم من وقوع البعض في خطأ وأظنه فادحا، بقصد أو دونه، أو ربما يعتبرون ذلك إجتهاداً من قبلهم في كيفية تحديد مفهوم الجيل، حين يعدونه مرادفا ومساويا للعقد الواحد من السنين، فإن حسابات المتتبع والقارئ الحصيف، فإن هذه الفئة الأخيرة ستفضل بل ستتجاوز هذه الطريقة من التفكير في كيفية حساب الأجيال، لتصل الى مفهوم أبعد من ذلك في تحديده، يرتكز أساسا على أهم المشتركات التي تجمع أبناء الجيل الواحد وضمن إهتمام بعينه، أي بتعبير أوضح فهم (حركة نوعية جمعية للافراد ضمن زمن ما، وتأسيسا جديدا... لمجموعة من المفكرين أو الفنانين أو الادباء). وبهذا المعنى فمن الممكن أن يطلق هذا الاسم على مجالات شتى من أشكال الابداع كالموسيقى والمسرح والفكر والفلسفة وغير ذلك من الفنون، إذ لم يقتصر الامر على الشعر وحده.

وعند الحديث عن الشعر الستيني في العراق فلا يمكننا المرور دون التطرق الى بعض الاسماء الهامة في هذا المجال كفاضل العزاوي وصادق الصايغ، ومَنْ رحل منهم كمؤيد الراوي وسركون بولص وشريف الربيعي، اضافة الى أسماء عديدة أخرى. غير أن الشاعر جليل حيدر يشغل مكانا مرموقا وواضحا بين أبناء هذا الجيل بأعتراف الكثير من النقاد. فمنذ بداياته أستطاع أن يكتب القصيدة المتحررة من بعض القيود، والانطلاق بها بعيدا، وصولا الى قصيدة النثر التي استطاعت ان تطوع اللغة الى مديات رحبة، متحررة من هيمنة وسطوة كلاسيكيات شروط القصيدة العربية.

ففي قصيدة المفتاح على سبيل المثال يقول الشاعر :

ممتقع في الوردة هيأته حبر وزناجيل
أبعد من صوت وأقل من الحب كمن يفتن هيبته
بألضوء
كمن حاوره الدوخان عبرنا
منهمرين بنسيان
من سلمان باك الى الروشة حتى آخر كمثرى
أغوتنا بارجة الطل الباكي
نفلت من طغمتها نحو القيعان

هناك من النقاد من يرى في شعر الستينات وقصيدة النثر على وجه التحديد ميلا نحو التجريب في استخدام بعض التعابير، والتي تعد غير شائعة بل وغير معروفة في قصيدة التفعيلة كاستخدام الملصقات في الشعر وادخال بعض الكلمات المرسومة بالحروف اللاتينية، وهناك نماذج كثيرة من ذلك في شعر جليل حيدر، ففي نفس القصيدة آنفة الذكر نرى نموذجا تطبيقيا يؤكد هذا الرأي:

من stor torget حيث ينتهك فضاء الساحة فارس
مخضوضر بعنجهية
محنك بالقتل والتحرير. يصفف شعره اليمين.
يقلم أظفاره اليسار.
من مقهى Europé الى المحطة وهي تقبع في جبة
البحر،
بل تنزوي،
التي يفترق فيها عشاق يتشابهون بالصدفة.
من السفن البيضاء مرتبكة بالبساطة
يبدأ الرسم.

تعدد الامكنة والعلاقة بين الشاعر ومنفاه الاضطراري، ربما ستخلق بيئة غير ملائمة، قد تؤدي أحيانا الى الحد من أسباب الانطلاق نحو ملكوت الراحة والاسترخاء، وصولا الى التأثير سلبا على طبيعة النص المكتوب، القادر على اختراق الروح والوصول الى الاماكن التي شاء لها الشاعر أن تستقر، دون قيد أو شرط مسبقين.

وعن ذات الموضوع والحديث لا زال عن تعدد الأمكنة، فقد يؤدي ذلك الى فقدان أو ضعف العلاقة بالجذر والاصل لتجعل من التذكر أمرا ملتبسا، تتداخل فيه وتتشابك مصادر الكتابة لتجعل من صناعته أمرا عصي التحقق، متعثرا، ربما سيؤدي ذلك كتحصيل حاصل الى خلق حالة من الارباك، ستفرض على صاحب النص بذل جهد استثنائي حين شحذ ذاكرته، هذا اذا ما كان حريصا على الاستعانة بذلك التأريخ، وأذا ما أراد لجهده في أن يوضع في مكان لائق وعلى الورق المحفوظ.

الا ان جليل حيدر ورغم بعده عن الاماكن الاولى التي شكلت شاعريته، فقد ظل وفيا لها في حله وترحاله، وهي زاده الذي لم ولن ينضب ولن تكون كذلك، وهذه ستسجل له دون شك، فجذر قصيدته تلك الارض الطيبة التي انجبته وفرعها في فضاء منفتح السماوات والاتجاهات، أفسحت له في المجال، ليطل من خلالها على مساحات رحبة وبلا حدود، وهذا هو شأن الشاعر دون غيره.

فعلى الرغم من البعدين الزماني والمكاني اللذان يفصلانه عن تلك الحقبة البعيدة النائية، الا انها ظلت مرافقة له، لصيقة به، وربما استعان بها في لحظات الاختبار والامتحان العسير والاسى المر. ففي لحظة من التذكر والعودة الى تلك الفترة، سيجد الشاعر نفسه امام مرحلة عصيبة عليه، افتقد فيها الاحبة والاصدقاء وتلك البساطة والإعتداد الفطري:

أشاطرك السفرطاس المعلق على دبابة ورائحة الدم
في الهواء
أشاطرك حصان المهرب الى ايران قرب ليل يصوب
فوهته،
نحو مليون شخص
أشاطرك السرنحة بين الاصوات :
صوت ذهبي لمراهق
صوت فضي لرشاش
صوت أبيض لماسيرة

وعلى ذات المنحى، سيستمر جليل حيدر في إستذكاره البعيد، مستعرضا الكثير من الصداقات والاماكن، بكثير من الحسرة والتمني بالعودة المستحيلة الى ذلك الزمن الجميل، إذ لا زالت أجواء سينما قدري أو روكسي تداعب ذاكرته، بين فينة واخرى، فكانت القصيدة :

الذي يشبه توني كيرتس، أهمل خصلة نافرة، لأغواء
مكتمل
بمراهقته
كلما انحنى، هرولت فساتين وعطور الى مجاله
الفردي، الواقفات
بأنتظار
التذاكر
والوسادة الخالية، تأملن انوثتهن في عيون ذكور
أفلتت صقورها من
ألأقفاص،
في زحام وتواطؤ محتسب.

بيروت إحى محطاته الهامة والمحببة، لم تغب عن باله هي الاخرى، فهي حانة المثقفين واستراحة الرجل المشاكس لأنظمة الحكم العربية، تلك الأنظمة المهزومة والمأزومة. بيروت أيضا ملتقى للاحبة وللشهود ألاحياء، الناطقين بقول الحق ولا قول غيره، فكانت ابوابها مفتوحة سخية لكل المنتمين والتواقين الى عالم بلا شروط أو قيود، يحد من انطلاقها نحو عالم الحرية، فضمت بفخر صفوة من الشعراء والروائيين والسياسيين والفنانين، اولئك المغضوب عليهم والرافضين لمنطق السطوة والتحكم بمصائرهم، فشاء القدر وشاءوا هم أولا ان يكون لهم شرف تحمل هموم شعوبهم.

وجليل حيدر لم يكن ضيفا طارئا أو ثقيلا على بيروت، بل كان مشاركا فاعلا في تنشيط الحركة الثقافية في الحياة اللبنانية عموما، وفي الحركة الثقافية العربية بشكل خاص، لذا يمكننا القول ان التفاعل الثقافي بين الطرفين اللبناني والعربي لم تخطئه العين، فالصحف اللبنانية الرئيسية والواسعة الانتشار كالسفير والنهار، لاتكاد تخلو يوما من مساهمة المثقفين العرب والعراقيين منهم على وجه التحديد، مما أدى لأن يطبع المشهد الثقافي البيروتي بمسحة واضحة من الادب العراقي وفي مقدمته الشعر بأعتبارهم سدنته.

في هذه القصيدة ستظهر وبشكل واضح تأثيرات المرحلة البيروتية على شعر جليل حيدر :

((توليدو))
طاولات
طاولات بلون السعادة،
والياسمين.
طاولات كأمسية من رنين.
حملتنا الى غيمة وسفينة.
قباطنة الشعر،
والاغنيات الحزينة.
طاولات لمقهى
طاولات وذكرى،
طاولات الأسى والحنين.

((لم يكن الكثيرون ممن عرفوا جليل حيدر، قبل الهول، يتوقعون أن هذا الشاعر الذي يكتب شعرا (غامضا) غارقا فيما سماه الكثيرون (ثورية على الطراز الوجودي)، يمكن أن تأتي عليه لحظة يجند فيها قلمه، وشخصه، لمعركة الصمود (الثقافي والقتالي) معا، بهذا السطوع الذي حدث)). بهذه الكلمات المكثفة، لخص الكاتب حلمي سالم شهادته عن الشاعر في مرحلة تعد الاخطر في حياة العاصمة اللبنانية عندما حاصرها الغزاة الاسرائيليون في عام ١٩٨٢، حيث لم يقف حينذاك جليل حيدر وقفة شاعر فحسب، بل شعر انه أول المحاصرين وليس امامه من لغات أخرى غير لغة الكرامة، فراح ينشد بأيقاع واحد مع عدلي فخري وزين العابدين فؤاد وغيرهم أنشودة المقاومة .

لقراءة تجربة جليل حيدر الشعرية، لابد من التطرق الى جملة من المؤثرات التي دخلت عالمه الشعري، فمن بداهة القول وبسبب من تنوع الامكنة، فقد التقى في تجربته نصان ينتميان الى مدرستين مختلفتين، أو هكذا سيبدو الأمر للمتلقي، فالقادم الغريب، الحالم والعابر كل تضاريس الوجع الانساني، المحلق عاليا حتى ارهقه الترحال، سيجد نفسه أخيرا وقد حط في مكان آمن، أليف، منسجم معه، فكان لمستقره السويدي أثرا يعترف به جليل حيدر حين يبوح بملأ فمه (انفعلت بغنائية شعر الحب عند Karin Boye وبحياتها، وبأغاني Felin. لكنني تأثرت بحساسية شاعرين وضع أحدهما انجازا شعريا جديدا عندما أطلق الحداثة في الشعر السويدي في الثلاثينات من هذا القرن).

صدى التأثير اذن كان جليا على جليل حيدر ففي قصيدة دوافع :

كريستيانا مزار الفنان.
مقهى ومجموعة مقاومة من الصخب والصفنة،
بحماية كلاب،
وعناية مراهقات
يفترشن النهر. كريستيانا كومونة الحب الدنماركي
العاطل.
استراحة غزلان.
ربما الالم ينشط ملصقاتها الثورية والقصائد.
مزار محبين وشعراء لهم في الحانة أثر،
وفي المقهى نجمة.

ومسك الختام فإن تجربة جليل الشعرية في السنوات الأخيرة، أخذت تتمدد طولا وعرضا، في منفاه الإضطراري، لتشمل انشطة عديدة، ابتداءا من القراءات والاماسي الشعرية المشتركة مع شعراء من مختلف دول العالم، وليس انتهاءاً ببعض المشاريع الثقافية، كالقيام بتأسيس دار نشر جلجامش للطباعة والنشر، بإدارة كتاب مهاجرون من مختلف بقاع الارض، وبشكل خاص من لاجئي العالم الثالث. اضافة الى اصدار بعض المجاميع الشعرية، التي تحمل في طياتها اسماء شعراء عاشوا تجربة تتشابه والى حد بعيد مع ما مرَّ به جليل حيدر في مقارعة الديكتاتوريات والتطلع الى تحقيق مجتمعات خالية من القمع والتمييز بكل أشكاله، من خلال تلك القصيدة التي نسميها بالمنتمية والملتزمة بقضايا الشعوب وتطلعاتها المشروعة في تحقيق أهدافها. وفي هذا الصدد فلا مندوحة من التذكير بأحد دواوينه الشعرية والتي رأت النور وهو في منفاه، فقد أصدر كتابه الموسوم (بورتريه للملائكة) بالتعاون مع هنري دياب، وهو عبارة عن مجموعة من القصائد المترجمة الى العربية لشعراء سويديين.

ملاحظة لا بأس من ذكرها:

لقد كتبتُ هذه المقالة قبل قرابة الست سنوات وَرُكنت جانبا دون دراية مني، وأثناء عودتي لبعض الأوراق القديمة حالفني الحظ والصدفة لأن أعثر عليها فعدت اليها والعود أحمد. إستعنت في كتابة هذا النص على بعض ما توفر لي من مصادر، كان من بينها دواوين للشاعر وما كَتبَ عنه بعض النقاد والمتابعين للحركة الشعرية في العراق، كذلك إعتماداً على ما كان يعلن عنه شخصياً وعلى لسانه، كل ما أأمله أن لا زالت هذه المقالة محافظة على قيمتها الأدبية وما ستجلبه للقارئ من متعة وفائدة.

عراقيون
من زمن التوهج

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (4605)
السنة السابعة
عشرة - الخميس
(6) شباط 2020

جليل حيدر: قصيدتي جمهورية خاصة داخل جيل الستينات

جليل حيدر (١٩٤٥) واحدٌ من أبرز الأصوات الستينيّة في الشعر العراقيّ الحديث. ظلّ السؤال عن مدينته يجرحه ويلاحقه حتّى قبل أن يكتب في مقطع من نصّ «ديكتاتورية نفسي»: «كيف أحملُ بغدادَ مطعونةً في القصيدهْ/ كيف أسجُنُها في دمي/ وأمرّغُ حبري على عثرات جديدة؟...». صخبُ جيله وإعجابه بالثورات الطلابيّة في العالم خلال ستينيات القرن الماضي، أفضيا إلى هذا النسق من كتابات الرفض والاحتجاج، لتتمظهر في هويّة فنيّة جديدة. هوية كانت تنتظرها، ضمن أقدار العراق المُلتهبة، مطحنة السياسة والانقلابات الدمويّة، ليتفرّق جمع الشعراء والفنّانين ممّن آمنوا باللايقين وحركات التحرّر.

حسام السراي

وكانت بيروت ـ بعد عقد من الزمن ـ محطّته التالية، تحقّق هناك وبمواصلته الكتابة والعمل ضمن صفوف «الجبهة الوطنيّة» مضمون مقولة قديمة له: «كنت أحمل أسطورة الرافدين في محيط من السلاح والفنون...». آخر محطّات صاحب «قصائد الضدّ» مجموعته الشعرية الأولى (١٩٧٤)، كانت استوكهولم التي وصلها عام ١٩٨٩، مواصلاً إصدار نتاجاته الشعريّة وترجمة نماذج من الشعر السويديّ، ليصدر عام ١٩٩٩ كتابه المشترك مع هنري دياب «بورتريه للملائكة: الشعر السويديّ الحديث»، أنثولوجيا مترجمة عن السويديّة (المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر).:

▪ لنبدأ من مقالك الاحتجاجيّ الأخير المنشور، هل كنت تتوقع أن يغدو العراق جنّة لأحلام افترضتها في ما سبق؟

ـ ليست مسألة توقّع. هناك حبّ لبغداد التي وجدتها مزيَّفة ومنتهكة من كل الذين يوسّخون وجهها ويدمّرون سمعتها كغزاة ومحتلين، فالذين يبرّرون كرههم لبغداد بدافع دينيّ وتفكير شعبوي مريض، يحيلون هذا الكره إلى أبي جعفر المنصور الذي اضطهد الشيعة العلوية من آل البيت، ويضيفون كرههم إلى شارع الرشيد وهو من أهمّ معالم بغداد؛ لأنه باسم هارون الرشيد، قاتل الإمام موسى الكاظم. هذا ونحن في الألفية الثالثة؟!

هناك من قست عليه الظروف تاريخيّاً من بين فقراء سكنوا أطراف العاصمة، وتنادى بعض مثقفيهم حتّى اليوم للاتكاء على مقولة الدكتور علي الوردي عن الأفندية، أي تلك الطبقة من المتعلّمين والمتمدنين سكنة بغداد؛ كي يميّزوا تمييزاً طبقيّاً بين بغداد وثقافتها ومدنيتها وبين مرجعياتهم الريفيّة والعشائريّة والطائفيّة.

إنّني أفتقد الجمال والتحضّر والنزهات والسينمات وشارع أبي نواس الذي كان قبلة المتنزّهين والعوائل والسكارى، حيث المقاهي والبارات وجنّة الطرب. إلقِ نظرة الآن على أبي نواس، ستجده معتقلاً بمواقف السيطرات الأمنيّة وبالأرصفة ذات الحجر التركيّ وبالضفتين الحجريتين لنهر دجلة وانعدام تام للحياة المدنيّة في هذا الشارع.

▪ لكنّك هنا تغفل حيوات أخرى ومبادرات لشباب وناشطين يتوزّعون بين شارع المتنبي وفي المقاهي البسيطة، ربّما يعيد نشاطهم شيئاً من الروح القديمة للمدينة؟

ـ الشيء الوحيد الذي أنقذني من الظلمة هو تحرّك الشباب برغم قلّته أو صغر حجمه، وأيضاً جمعة المتنبي حيث الأصدقاء والكتب. لولا ذلك لأطلقت خيالي بقتل كلّ هؤلاء الذين جاؤوا يحكموننا في زمن الغفلة والانحطاط.

▪ ثقافيّاً، ما الذي بقي من جيل الستينيات وجذوته في العراق؟

ـ ثقافة الاحتجاج والتمرّد هي جذوة الحريّة التي بدأها جيل الستينيات في العراق، ولا تزال تعلّقاتها موجودة في الشعر العراقيّ ونقده وترجماته، مع أن هذا الجيل الذي ينظر إلى الحريّة بمقاس واحد هو العبث باللغة والصورة الشعريّة والذهاب إلى مدى أبعد في الاحتجاج، لكنّه يقصر عن المعرفة الحقيقيّة لجذوة الشعر ولتاريخه ومعنى القصيدة. الشعر لون وعلم وفلسفة ومعرفة بتاريخ الشعر في العراق أولاً، ثم في المحيط والمساحة التاريخيّة العربيّة وبؤر الالتهاب في العالم.

ثقافة الاحتجاج والتمرّد هي جذوة الحريّة التي بدأها جيل الستينيات في العراق، ولا تزال تعلّقاتها موجودة في الشعر العراقيّ ونقده وترجماته

نعرف أبو نواس قبل ألن غينسبرغ وفرلنغيتي وأودن وبودلير. نعرف المتنبي وابن سكرة الهاشمي ودعبل قبل أن نعرف فيليب لاركن وبوب ديلان وهوبكنز. المعنى عندما تختار أن تكون شاعراً، عليك أن تقرأ تاريخك الشعريّ في المحيط وفي آخر القارات. المشكلة عند أصدقائنا هنا في العراق أنّهم يكتبون بكثرة ويقرأون قليلاً.

مشكلة الستينيات الشعريّة هي الحريّة في الكتابة. وكان الصديق الشاعر فاضل العزاوي مايسترو هذا الجيل، وقد خرجنا كلّنا من تجربة ومحنة عراقيّة كبرى في انقلاب شباط الأسود ١٩٦٣، التي دعتنا إلى التفكير بأرواحنا وثقافتنا والجرح الكبير في حياتنا. هناك اجتمع المتخالفون وتفرّدوا بجمهورياتهم الشخصيّة خارج ثُكن المعتقد والانتماء والتحزّب.

▪ قصائدك الأولى ـ جمهوريتك الشخصيّة، بقيت ضمن ملامح وأجواء الكتابة الستينيّة...

ـ حين أزعم أنّني من جيل الستينيات، فإنّني أعني تحديداً جيل الغضب والاحتجاج على المجزرة، أنا من أبناء تلك المحنة الكبرى في تاريخنا الحديث عندما جاء الانقلابيون بروح همجيّة في شباط ١٩٦٣ ليبدأ حصاد الدم في الشوارع قتلاً واغتصاباً واعتقالات، وحيث البيان رقم «١٣» المشؤوم الذي ألقي في الإذاعة بإبادة الشيوعيّين، وكان ذاك يعني القتل في الأزقّة والحارات والبيوت لكلّ اليسار والديموقراطيّين، وأعتقد أنّ جيل الستينيات هم ورثة ذاك الدم وتلك المأساة.

▪ لكنّ «قصائد الضدّ» لم تخرج عن لحظة حداثة الروّاد الأوائل.

ـ تاريخ الشعر العربيّ متنوّع منذ العصر الإسلاميّ الأوّل والأموي والعباسي، خرجت أوزان مختلفة للشعر المتداول، أبو العتاهية مثلاً، بعدها الموشحات وشعر الدوبيت، وفي العصر العباسي المتأخّر كان النتاج الشكليّ والخروج عن مسطرة الوزن والقافية على يد أبو القاسم الكوفي المشهور باسم «ابن الخلفة»، والذي لم يعترف به النقّاد كشاعر جديد ثمّ وضعوا نتاجه ضمن كتابة الإخوانيات، يقول: «أيّها اللّائم في الحبّ، دَع اللوم عن الصَّبّ، ولو تلمس من شوقك هذا العضدَ المبرم، والساعد المعصم والكفّ التي قد شاكلت أنملها أقلام ياقوتْ، فكمْ أصبح ذو اللبِّ من الحبّ بها حيران مبهوتْ...». يعتني النقّاد العراقيون والعرب بالإطار الشكليّ للقصيدة، هذا الإطار الذي يحتكمون إليه بين الكلاسيكي (العمودي) والشعر الحرّ (التفعيلة) وقصيدة النثر التي لم يتفق أحد من النقّاد على ماهيتها، بدءاً من سوزان برنار وقبلها متمثّلة عند حسين مردان التي سماها «النثر المركّز»، في حين هي موجودة فعليّاً في شعر الستينيات، عند فاضل العزاوي، وعبد الرحمن طهمازي، وجليل حيدر، وصلاح فائق، وسركون بولص، ومؤيّد الراوي، والعديد من الشعراء الذين مرّوا ولم يبقَ لهم أثر.

▪ ديوانك «دائماً... لكن هناك»، هل يمكن عدّه الانتقالة الحاسمة صوب كتابة قصيدة النثر؟

ـ منذ «قصائد الضدّ» كنت أكتب قصيدة النثر، لكنّها حذفت لأسباب رقابيّة مع ستّ قصائد وتغيير اسم إحدى القصائد المعنونة «جليل حيدر» إلى «لغة المرآة». أفكّر الآن بإعادة طباعة «قصائد الضدّ» كما هي. نشرت بعض قصائد النثر في مجلّة «مواقف» سنة ١٩٧٠، وفي ديوان «صفير خاصّ» تجد أيضاً جذوراً لهذه القصيدة، مروراً بكتاب «طائر الشاكّو ماكّو» والقصيدة المشهورة بالعنوان نفسه، وهي قصيدة نثر مركّزة اشتهرت انتهاءً بـ«دائماً... لكن هناك». ليس للشعر وصف شكليّ، لكنّني اكتشفت ضمن تجربتي أنّ اتّباع الوزن سيخلخل الصورة ومساق التفكير في القصيدة. هناك عيوب كبيرة في قصيدة التفعيلة، لأنّك ستتبع الإيقاع الذي سيأخذك إلى زوائد تتوافق مع سياقاته لكنها تختلف جذريّاً مع العالم الذي تريد بناءه في القصيدة، أي كيف تقرأ الشاعر من دون عالم. واللغة هي عضو ذهنيّ ينسب إلى الجسد بمفهوم نعوم تشومسكي، ولغتي حرّة لا تخضع لضغوط القالب الموسيقي الخارجيّ.

▪ تقول في قصيدة «طائر الشاكّو ماكّو»: «أيّ طفل هو الآنِ عابراً دمع الكآبة؟/ أيّ طفل قطف منه حياته كلّ يوم/ وفي كلّ منعطف/ دون أن يقبض تحيّته أو وداعه؟/ هُوَ/ ذا/ يُخرج لسانه هارباً إلى أقصى الهزائم/ مختفيا في التلهّف/ صارخاً: شاكّو ماكّو؟...». حظيت هذه القصيدة بحضور أكثر في الأذهان، كيف تقرأ سياق ولادتها؟

ـ في بيروت، كنت محرجاً من اللغو السياسيّ الذي ينصبّ من أحزاب يساريّة وصحف بالمجان، فاحتميت بإرثنا العراقيّ كعودة المحبّ إلى حبيبته والمُبعد إلى أرضه. وفي الكثرة كنت أُحسّ وحدتي أتلمّسها وسط ذلك الفيضان من الأيديولوجيا والانحيازات بدوافع مختلفة، فعدت إلى «طائر الشاكّو ماكّو»، وطائري الحرّ الصريح الذي يرى من فوق ما لا يراه الذين تصغر مرآتهم في سطوة حاضر يتملّكهم. أنا طائر الشاكّو الماكّو المُعذّب الرائي المحبّ المشاكس الخطر الذي يقول ما لم يجرؤ أن يقوله الجالسون على السطح.

▪ بعد بغداد، كانت بيروت هي المستقرّ، ثمّ صارت دمشق القدر الحتمي، أي مساحة في الذاكرة وأي قول عن هاتين العاصمتين العربيتين؟

ـ بعد ما سُمّي بالنصر وهو الهزيمة في بيروت، واعتقالي بعد الخروج منها عام ١٩٨٢ على أيدي الإسرائيليّين ثم تسليمي إلى «الكتائب اللبنانيّة»، وكنت ضمن الحزب الشيوعيّ اللبناني، كانت دمشق الوجهة التالية. في بيروت، الشعراء، الحوار الثقافيّ، الخمر، ومحبّة النقد. في الشام، النقاهة، وحيوية الحضور، وصورة بغداد بمقاهيها وخمّاراتها وأصدقائنا والنساء الجميلات والدبيب الشعريّ في مفاصل كينوناتنا المُترنحة على حنين الماضي.

▪ إذا كانت اللغة تعبيراً كيانيّاً يرتبط بالهويّة وبالمحيط، فأي عوائد اكتسبها النصّ الشعري لدى الإقامة في السويد والنطق بلغتها؟

ـ في دراسته كتب الناقد فاضل ثامر عن القَرين الشعريّ في تجربتي، هذا القرين ليس له مكان ربّما في غرفتي أو في بار، إنّما تكوّنت علاقة هذا القرين عندما هاجرت إلى السويد بأناقة فائقة لكنّها مجروحة بالألم، حيث تأنّقت المعاناة بين صخب ودمويّة التاريخ العراقيّ ونعومة الوعي بمحمولاته الإنسانيّة في السويد. إنّ عصبيّة النصّ الأولي تنعّمت في السويد؛ لأنّك في ثقافة أخرى لا يمكن أن تكتب ضمن محمول متخلّف مرضي إزاء حياة متحرّرة تحترم الطبيعة وتحبّ الإنسان وتبجّل الروح.

في العربيّة وأنا ترجمت «بورتريه للملائكة»، اكتشفت أنّ في لغتنا استدعاءات وتكرارات لا تحتملها اللغات الأوروبيّة، بمعنى أنّنا نتوجّه في السويديّة إلى المعنى والمجاز والاستعارة من دون تكرار المترادفات. ذاك أعانني على تطوير لغتي بين هاتين اللغتين، العربيّة والسويديّة، حيث كيف أنقل لغة غونّار إيكيلوف إلى العربيّة، وغونار الذي ترجم الشعر الفرنسيّ السوريالي إلى السويديّة، وعندما قرأ «ترجمان الأشواق» لمحيي الدين بن عربي، كتب ثلاثيته المعروفة «ديوان أمير أميجيون» و«حكاية فاطمة» و«دليل العالم السفلي»، وقال إنّه متأثّر بالثقافة الإسلاميّة، وأكثر من ذلك حينما قال: «الآن بدأت أفهم وأكتب الشعر». الشاعر في أي لغة من لغات العالم، لم يهبط بباراشيت أو بالون، إنّما هو وريث ثقافة العالم الكليّة.

▪ اليوم، أيّهما أقرب إلى قصيدتك، روح مجرّب يرسّخ التأصيل في نصّه، أم عقل صانع ينقب في مساحة خاصّة ومبتكرة يذهب إليها ساعة مواجهة «الورقة البيضاء» كما ينوّه عنها بورخس؟

ـ نقّاد الشعر القدامى كانوا يميّزون بين القصيدة التي تخرج من القلب وبين القصيدة التي يعمل فيها التفكير والصور والتجديد. كانوا يسمّون هذا النوع من الكتابة بـ«الصنعة»، كما في شعر أبي تمام، و«الصنعة» هنا تعني الخبرة والتراكم المعرفيّ الذي يرافق الشاعر على مدى تجربته في الكتابة. والتجريب جزء مهم في وعي الشاعر وخبرته نحو تطوير القصيدة والنهوض بها إلى مدَيات فلسفيّة وحلميّة، مؤكّدة معاينتها للحياة بعيون مختلفة. التجديد في القصيدة يبدأ مع وعي الشاعر بلغته الخاصّة، أي أنّ لغتنا الأولى الاجتماعيّة نستمدها من العائلة والشارع والمدرسة. عندما يكتب الشاعر يبدأ بإزاحة جزء من هذه اللغة وتطوير لغته باستمرار، وكلّما أنتج مفرداته وصوره، ازداد تخلّيه عن اللغة العامّة السائدة وهكذا حتّى يصل إلى عالمه الخاصّ في الكتابة.

▪ جوهر بناء القصيدة لديك، لغة خاصّة أم عموم مستلزمات التشكّل الفنيّ المختلف؟

ـ بناء القصيدة لغوي مصدره الصورة، إنّني معني تماماً بالصورة في الشعر وفي التناقضات بين العوالم، حيث تأتي قصيدتي صِداميّة تتحرّش بالواقع تقلبه وتعيد كتابته وفق حلمٍ خاصّ.

▪ بمعنًى أنّ «طائر الشاكّو ماكّو» كانت تعبيرا حلميّا؟

ـ هذه القصيدة استعادة لعالم نفتقده، إذْ بنيت هناك هذا العالم باعتبار أني أعرفه بدقّة وهو عالم من الحلم.

▪ هناك كلام كثير عن تراجع الشِعر، قبالة تقدّم الرواية، هل نسلّم به فعلا؟

ـ نحن شعوب تستورد كلّ شيء من الملابس إلى المنتجات الأوروبيّة إلى القول. أي مصطلح يظهر في أوروبا يتبنّاه الإعلام عندنا بتفاصيله. في الستينيات، كانت شائعة كلمة «الحظيرة»، تطلق في الفنّ وفي النقد، في حين هي مفردة أوروبيّة لها زمانها ومكانها، أما دلالاتها العربيّة في الترجمة فهي مأوى الحيوانات. إنّ مقولة ازدهار الرواية وانحسار الشعر هي بالضبط التسويق الإعلاميّ لدور النشر الأوروبيّة التي تصنع كتّاباً وكتباً بدوافع تجاريّة تسويقيّة. ماكينة الإعلام العربيّ تردّد ببغاوية هذا الازدهار مقابل ذلك الانحسار. كتب الكثير عن عصر الرواية، وهذا الادّعاء نتاج أحد الكتّاب الأوروبيّين وتلقى الوسط الثقافيّ العربيّ هذا الزعم وتداوله. الحياة من دون شعر مثل كأس عرق توما من دون ثلج ومثل دجاج مشوي على الفحم من دون ثوم، مثل فيروز من دون صباح ولا قهوة. أوّل نطق للإنسان على هذا الكوكب كان شعراً وأول نداءات الطبيعة هو شعر من إيقاع المطر إلى رقصة الريح إلى بياض الفجر. عد معي: جلجامش، سافو، أنخيدوانا...

▪ إلى أي درجة تهتمّ بشكل الكتاب الشعريّ وإخراجه؟

ـ أهتمّ كثيراً بالعنوان وبالغلاف؛ لأنّهما يعكسان ضوء المرايا في النص. في «قصائد الضدّ» كان الغلاف والرسوم الداخليّة للتشكيليّ الرائع صلاح جياد، وفي «صفير خاصّ» الغلاف للمبدع الراحل رافع الناصري، وفي «شخص بين الشرفة والطريق» بطاقة معرض للفنان ضياء العزاوي، أمّا «طائر الشاكّو ماكّو» فأنا من صمّم غلافه. أهتمّ وأعتني بالعناوين وبالأغلفة؛ لأنّني أحبّ عملي وأحبّ أن يكون كما القصيدة مميّزة، وأن تكون الصورة النهائيّة للكتاب تليق بي.

▪ ما صحة الزعم بأنّ مواقع التواصل الاجتماعي زعزعت الكثير من المعايير الأدبيّة السائدة لعقود؟

ـ ضمن لعبة الفوضى الخلاقة، اعتقد بعض الجهلة أنّ الثقافة عُرضة لتكون فوضى أخرى، استنساخاً لأفكار أخرى، سرقات، واستنتاجات تخضع لسلطة التحكّم باللعب السياسيّة والماديّة. كم أحداً يعرف رولان بارت ويتمثّله في مقالات وكتب لم يقرأها غيره ويدّعي أنّه سيميولوجي أو بنيوي أو تفكيكي، مع أنّ أكثرهم لا يتقن لغة غير لغته التي تحتاج إلى إعادة وتصحيح.

▪ هل من أوهام يوفرها الفيسبوك للشعر والشعراء؟

ـ ليست أوهاماً، وأنا مع النشر وإشاعة الشعر في كلّ مكان وفي كلّ الأصوات والألوان. لا أحد يحتكر الشعر، والفيسبوك محطّة للقراءة وليست للتقييم، لأنّه كتابة ودراسة وحوار.

▪ كيف يتهجّى الشاعر خلاص العراق؟

ـ لا خلاص لوطني إلا بكنس كلّ هذه الطبقة السياسيّة التي هبطت علينا من السماء وجاءت بها أميركا، ورميها إلى أقرب حاوية للزبالة في التاريخ.

▪ ومستقبل العراق ثقافياً؟

ـ لا نملك دولة، إنّما تحكمنا سلطات وميليشيات أصبح اهتمامها شراء أسماء ونتاجات الكتّاب والفنّانين في محاولة لكسب الرضى بمنحهم ألواحاً أو دروعاً تكريميّة، وإبعادهم عن التفكير النقديّ ومطالبات الحريّة والتغيير. ولنا أمثال عديدة من مقتل المفكّر قاسم عبد الأمير عجام إلى الباحث كامل شياع، إلى قافلة صحافيّين وفنّانين تعرّضوا لاعتداءات واغتيل بعضهم. لكن مقابل ذلك، يبقى صدى الاحتجاج الجذوة الروحيّة التي ستؤسّس تياراً مستقبليّاً وخاصّة أنصار التيار المدنيّ من كتّاب وفنّانين.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
الاخراج الفني: حيدر الكواز
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
WWW. almadasupplements.com

جليل حيدر

هررة البلاد

عندما انتحرَ الرفيقُ الرماديّ، لمْ يكن الوقتُ ورديّاً تلك السنة
والرفيقُ الرماديُّ طنانٌ يبربرُ كهّرٍ يتلمّظ على فَضَلاتٍ.
هرٌّ أنيقُ الملبسِ يهزُّ رأسهُ متوافقاً مع الطُغمة.
هرُّ المربّع الأوّل والدستور والأدعية
هرُّ يبيتُ في سُرادق عزاءٍ، يردّدُ نشيدَ الأسلحةِ والتخفّي
هِررّةٌ تُخرمشُ بمخالب مُستعارة من الجيران.

*

الأوّلُ هِرُّ المربّع :
يرفعُ إصبعه كمنْ يقرأ خطبةً على جبلٍ حيثُ زوابع ومطرٌ
وعواصف، يمتدحُ المربّعَ الأوّلَ مع ضوءٍ
في مسرحية الضمير المستتّر. لعلّهُ نسيان ذاكرةٍ، أو معاهد للصيدلة والدواء.
في الأقّل، سيجدُ المرضى فردوساً اصطناعيّاً ونقاهة.
ما يعنيني في هذا الهّر، ربطةَ عنقهِ وترميشة عينيهِ في الاستوديو.
لا بُدّ من محلّلٍ سياسيٍّ لهذهِ الدوامة.

*

الثاني هِرُّ الوَسَطيّة :
هُنا العصا، وهُنا نصفها. اطبقْ يديكَ على نقطةٍ تحفظُ ماء الوجهِ
وتُهرّبُ أرانبها نحو الفخاخ.
مثل نصفِ الكأسِ خاوياً، كي لا تقربوا الصلاةَ وأنتم خونة،
مثل نعمٍ ولا
مثل باقة وردٍ اصطناعّي في بستان.
المغزى تربيتةٌ على الخّدِ، وانحناءةٌ في بهوٍ من التماثيل.

*

الثالثُ هِرُّ الديّن:
لِمنْ كلّ ذاكَ المواءُ والوعيد؟
ألقطيع يجرُّ عربات التراثِ والتقوى باكياً؟
مواعظُ ونفاياتُ "قال أحدهم"، وذاكَ اللباس المتديّن في ظلام أبّهتهِ
مع مايكرفون التأنيب، ثُمّ واجبات التذلّل،
لأن لائحة بأسماء النبييّن وحوادث الطرق الغريبة وصفة هِرّ الدين.
هِرٌّ في عباءةٍ وأصبعه يُهدّد.

*

الرابعُ هِرُّ المصطلح :
وُلِدَ في قاموس. مُعتّدٌ برطانتهِ تحت شمسٍ غاربةٍ
العولمةُ كلمةٌ تنقذهُ من العاصفةِ، يرمي بها كشراعٍ يرفرفُ
على شاطيءٍ مجهول.
هِرٌمصطلحٌ، مُعجمٌ يبدو كتمثالٍ مفتوح الفم.
مع هذا
تغفرُ له شهاداتُ التقدير من مجامع اللغة،
ومراكز الشرطةِ
وتيارات الحداثة.
هِرٌ يُشبهُ زنزانةٍ، أو مدرّعةِ شوارع
ورصيف.

*

الخامسُ هِرُّ المؤتمرات :
لا بُدَّ من سجّادةٍ حمراء في مدخل الفندق
ونوافذ قطارٍ، وماخور
وخُذْ ما تريد من ياقاتٍ مُنشّاةٍ، مع بَرَكة الرئيس على المنصّةِ
ونصائحَ تليقُ بالتكتيك.
خُذِ القلم والمدائح
خُذِ الأجرَ على قدر الدعوة:
قصيدةٌ عذراء بفستانٍ طويلٍ وخمار
خطاباً في قاعة عميانٍ وسكارى
أسرارَ بلاغة الملائكةِ في النّص
وجعَ البطن عندما تُجّب.
مؤتمر! أفٍ

*

السادسُ هِرّ المؤامرة:
كيف تتسلّلُ السلحفاةُ في العُتمةِ، بينما تلاحقها حجارةُ الأعداء؟
أعداءٌ في مكاتبَ رسميةٍ وصرخات
أعداءٌ جانبيّونَ يحملون المناظير
عجيبةٌ هي المؤامرة
تمسحُ الدماءَ وراء الستارة، وتُغلقُ قوقعتها
هِرُّ المؤامرة حذِرٌ من الزوبعة
حين تُخالف طُرق السير في القصة
القصّةِ الثمينةِ لعُذرية الرواة.

*

مالمو. ديسمبر 2019

عراقيون
من زمن التوهج